

بجالات التعاون في نشر كتاب الطفل

انتشر وتعد في مختلف ارجاء العالم واسطواناته الموسيقية الخاصة وحتى مدنه السياحية والتعليمية ، وتشكلت مراكز الأبحاث العلمية بشأنه وانمقتد المؤتمرات الدولية من أجل تسيق الجهود المتعلقة بمجال من مجالاته .

ومع ذلك فقد ظل كتاب الطفل ومجلته من أهم مراكز الاستقطاب الحيوي في مجال العناية به ومن أنجح الوسائل المجدبة في عاله الصغبر . ومن هنا كان مصدر الاهتمام المتزايد في العالم بكتاب الطفل ونوعية مادته وصياغتها وأشكال طباعتها وحجمها مع اختلاف مراميها وغاياتها ووسائل مخاطبتها له بالحرف والصورة وحتى بالكلمة المنطوقة على اسطوانة مسجلة . ولم يعد في معارض الكتب الدولية مجرد شريك متواضع باسهامه ومشاركته بل صارت تفرد له المعارض الخاصة والمقتنيات الباحثة لثقافته وسبل تربيته ، وسارعت وسائل النشر المتعددة الى وضع كتاب الطفل في مقدمة اهتماماتها ومشاغفها ومنها ما اقتصر نشاطها في مجاله وتخصصت فيه ثم اقتضتها ضرورات التوسع والتكامل الفني والمادي والعلمي الى التنسيق والمشاركة مع دور النشر الأخرى ، خاصة فيما يتعلق بالمشاريع الكبيرة مثل دوائر المعارف والموسوعات الخاصة بالأطفال والصبيان . وكان لهذا كله أثره وصداه في عالنا العربي الذي ادرك بيقظته المعاصرة أهمية ما تتطلبه الطفولة من مستلزمات الرعاية والعناية والتربية السليمة وما تقتضيه هذه من وسائل وأدوات في مجال الكتاب خاصة حيث اقتصر مراحلها الأولى على ريادة الأديب والكاآب العربي في اعداد النص وتقديمه للطفل .

ولعله من حسن طالعه أن يتحمل خوض غمار هذه التجربة في بدايتها البكر رعييل من رواد الفكر العربي المعاصر بما لهم من حصيلة فكرية عميقة وتجربة متعددة الاطراف والجوانب ، اضافة الى تشبعهم وامتلاء وجداناتهم بالروح القومي الزاخر وحماسهم الناضج مع تطور اليقظة القومية فلم تعد تجاربهم من الاصاله والصدق ولم تقف عند حدود التقليد والمحاكاة لنماذج وأشكال دخيلة عليهم . كان في مقدمة هذه الاسماء رفاعة رافع الطهطاوي والشاعر أحمد شوقي وعلي فكري ومن بعدهم كامل الكيلاني ومحمد سعيد الريان وعند الاسمين الاخيرين كان النص الادبي المعد للطفل يستنبط سماته الفنية شكلا ومضمونا ويصنع من بداياتهما جسرا لادب الطفولة المرتقب في الوقت الذي يلفت فيه النظر الى مدى الحاجة الملحة لثل هذا الادب وأهمية وجوده في مضمار ابداعات الفكر العربي ، وبنه الهيئات والمؤسسات العلمية والادبية الى تدارك ما فاتها وبشر رغبة العديد من دور النشر الى خوض غمار التجربة ولو في أضيق الحدود وأقصرها .

وعلى مستوى الوطن العربي انمقتد باشرف جامعة الدول العربية (حلقة العناية بالثقافة القومية للطفل العربي) في بيروت في ١٩٧-١٩٧م اسفرت عنها نتائج وتوصيات هامة ، وفي مؤتمر الادباء العرب المنعقد بالجزائر في أبريل ١٩٧٥م كانت الطفولة في الادب العربي من مواضع المؤتمر التي قدمت بشأنها العديد من الدراسات والإبحاث ومن توصياته الهامة اعتماد الطفولة كموضوع ثابت في المؤتمرات المستقبلية للادباء العرب .

هذه اللمحات العامة تسوقنا الى أن الطفل العربي قد اخذ يحتل مكانه البارز في مجال الكتاب خاصة ويتزايد بالنالي اهتمام الادباء

من ابرز معالم الوعي الحضاري في عالنا العربي ومن أهم ملامح يقظته المعاصرة عنايته بشأن الطفولة واهتمامه المتزايد بها في مختلف مجالاتها ودأبه المتواصل من أجل خلق الوسائل الكفيلة برعايتها صحيا واجتماعيا وتربويا وثقافيا ، وهي عوامل ووسائل تتداخل وتتشابك في هدف مشترك واحد ، هو ايجاد الضمانات السليمة لمستقبل الطفولة السعيدة المرحه المستظمة لمذاق طفولتها وهي تعيشها وتمارسها بلا مرارة ولا خوف في أن تتحول في مراحل متقدمة من العمر الى مجرد ظلال باهتة كئيبة تخزنها الاعماق وتستنطقها حسرة ولوعة .

الطفولة المعانقة ليوم طفولتها والامنة المطمئنة لفعدها المشرق المسخ بدفق الحنان وتشوق الابتكار التفتح للبراعم الصغبر وتطلعات عالها الطفولي البكر .

ولا اعتقده مبالغا ذلك التعبير القائل بان الطفل هو سيد العالم اليوم ، فهو الشغل الشاغل للمتخصصين والباحثين في أي مجال له شأن بالطفولة ، وهو مركز استقطاب الدراسات والتجارب النظرية والتطبيقية ، ذلك أن الطفولة لم تعد مجرد مرحلة مبكرة من مراحل العمر يتقاذها الزمن ويطويها ليلسملها الى مرحلة أخرى متقدمة ، بل هي مرحلة هامة ودقيقة في تكوين انسان المستقبل وخلق مقومات بنائه ما يتوفر لها من وسائل وامكانيات من خلال معايير علمية متطورة تستهدف التوافق والتناسق بين الطفل وعاله الصغبر المشحون بالاحاسيس والرؤى وبين مجتمع الكبار من حوله وبما تنعكس عليه من مؤثرات ثقافية وتربوية واجتماعية ينلبسها الطفل ، سواء في محاكاته لها وهو يتشبه بالكبار أو تشبعه بها وتأثيرها فيه مع تطورات نموه .

ومن البديهي أن النظر الى الطفولة على انها مجرد مرحلة عابثة من العمر قد تقابلها بالاستخفاف والضحك فحسب هي نظرة من شأنها أن تتلاشى وتزول أمام ارتفاع الوعي وتطور الإدراك بأن نفسية الطفل وعقله يمثلان آلة بالغة الدقة والحساسية والرهافة في التلقي والتأثر وتسجيل الملاحظة بما يتطلب التعامل معه ببالحذر وباستخلاص النتائج العلمية التي توصل اليها الباحثون والدارسون في مجالات الطفولة . وينبغي ألا يأخذك الضيق عندما يقال لك ليس من حقك الذهاب وحدك الى محلات بيع لعب الاطفال لشراء شيء منها لطفلك وانما ينبغي أن تسترشد بتوجيهات المربي المختص لبدلك على اللعبة المفضلة لطفلك والملائمة له ، ليس بالنسبة لاختلاف السن فحسب وانما أيضا لنوعية اللعبة من طفل الى آخر ، بما يتوافق وذلك الجهاز الدقيق الكامن فيه . وعلى هذا النوال ومثلما تذهب بطفلك الى الطبيب ليجدد لك نوع دوائه وغذائه ، فانت ملزم بتحديد اختيارك في لعبه ولباسه وادواته التي يستعملها ، وأخيرا وليس آخرا كتابه الذي يقرأه وأيضا ما يشاهد في السينما والمسرح وما يسمع من الموسيقى . ومن أجل سعادة هذا السيد الصغبر ازدهرت المؤسسات العلمية والصناعية وتعددت نوعيات اختصاصها وتفرعت ، ودخلت التجارة بدورها هذا الميدان واحتلت مكان الصدارة فيه ، وهي تحاول السيطرة على المنافسة في الكسب الربح وتتجاذب الطرف مع تطورات العلم . وآخر نتائج المختصين في شؤون الطفل . ومهما كانت المآخذ والمؤثرات فهو الرابع أخيرا بهذا الاهتمام المتزايد في توفير متطلبات عاله الصغبر وما يريجه وبرضيه وبما يوجد منه انسانا متكامل المقومات ، وهكذا عرفنا أن للطفل اشروطه السينمائية الخاصة ومسرحه الخاص الذي

والباحثين بشأنه وهو ما ينعكس في النهاية عناية دور النشر ومؤسسات التوزيع بهذا اللون من المطبوعات واهتماما بالغا لما تقوم به من حركة ونشاط .

وإذا كان للعديد من دور النشر اسهمها ونشاطها الجدير بالتنويه في هذا المجال فإنه يتحدد في حقيقته عند النطاق الفردي لهذه الدور ، ويرتكز على جهودها الذاتية وهو ما يقيد تحركها ويربطها بمعايير تجارية مباشرة قد يؤثر على ما تقدمه من مضمون وقد تستغرقها ظاهرة التقليد والاقتباس المبالغ فيه تحت طائلة مفايس الربح والخسارة لنماذج وأشكال غريبة عن البيئة العربية ودخيلة على وجدانه ولا تولد في الطفل العربي روح الانتماء بقدر ما تستهلك فكره دوامة من الانبهار والاعجاب لهذا الغريب الدخيل . وإذا كان الناشر العربي بحاجة الى تنسيق جهوده في خدمة الكتاب العربي عامة فإن حاجته في مجال كتاب الطفل أكثر ضرورة واشد إلحاحا من أجل تنشئة الطفل العربي عقلا ووجدانا وإبراز مقومات التلاحم والتمازج القومي بأمته وتربيته وتراثه ، وذلك بتنسيق العمل المشترك بين دور النشر من خلال خطة مدروسة ومستوعبة للوسائل التربوية المطلوبة وواعية بالفوارق الجزئية الطارئة للطفل العربي بحكم بيئته من قطر الى آخر ، قادرة في الوقت نفسه على اذابتها واحتوائها بنظرة قومية شاملة تبني أسس الحاضر وتبشر بتطلعات المستقبل . وايضا فإن مثل هذا التنسيق من شأنه ان يغطي الاحتياجات الفنية والمادية المطلوبة وتبادل الخبرات والتعاون المثمر بمساندة المؤسسات والهيئات العلمية والثقافية في الوطن العربي حيث تكون قادرة على ايجاد البديل للاعتبارات التجارية التي لا ينبغي اغفالها .

وان المرأ ليقف متسائلا عن اسباب انعدام هذا التنسيق والتعاون في مثل هذا المجال الحيوي في الوقت الذي يشهد فيه محاولات غزو ضارية لعقل الطفل العربي من خارج حدوده ، متممة التركيز على تفريجه وابعاده عن مصادره الاصلية ومناخه الحقيقية وشده ذهنه الى النموذج الاجنبي القادر على صنع المعجزات واختراعات العلم وخوض المعارك وغزو الفضاء واختلاق البطولات وغيرها . ان هذا كله بمثابة جرس الخطر الذي يدق منبها الناشر العربي الى مثل هذه الظاهرة الخطرة حتى يسارع الى تداركها بتخطيط علمي مدروس لفائدة الطفل قبل ان يكون وسيلة من وسائل التجارة ، ولكي يدرك انه بازاء رسالة تقتضي امانة تحملها تكثيف جهوده وتوحيد قواه من اجل تحقيقها وفقا لمعايرنا القومية والحضارية وحتى يحقق الحصانة اللازمة لطفنا العربي من اي عنصر دخيل قد يبهره بريقه ويامر خياله وذلك بالعمل على التبشير بالنموذج المستقى من الارض العربية وتاريخها الفكري والنضالي والحضاري والتركيز على توحيد اسلوب مخاطبة الطفل العربي بالكيفية التي لا تتعارض ومقتضيات التنوع والتشويق لمضامين الكتاب وأشكاله ، والحرص على التقليل من الاقتباس والنقل والتقليد ، والحذر والتدقيق في اختيار النوعيات المقتبسة والمنقولة بالدرجة التي لا تتحول فيها الى عبء ثقيل على وجدان الطفل العربي .

وعليه فإن من الزم الضرورات الحاضرة العمل على انشاء مكتبة عربية للاطفال تتعاون فيها دور النشر بأسلوب منسق بين كافة وسائلها الفنية ، وبين التطلبات التربوية والثقافية والعلمية المتمثلة والمعيشة لمناخ تراثنا القومي والمعبرة عن شخصيتنا العربية والمنطلقة في تلاحم وتكامل خلال خطة عامة تساهم فيها جميع الجهات المعنية بشؤون الكتاب سواء عن طريق جهاز مركزي مثبتق عن دور النشر والمؤسسات الثقافية ومرتبطة باتحاد الناشرين العرب ، او باي كيفية اخرى مقترحة لتتولى مهمة المرشد الثقافي والفني في مجال كتاب الطفل بالدرجة التي لا تعتبر فيها اقحاما او تدخلا في صميمية العمل الفني ، مع اهمية موازنة الاعتبارات المالية والتجارية بما يضمن تغطية النفقات العامة ويحقق لكتاب الطفل الدعم المطلوب ويحيمه

من مؤثرات السوق التجارية يرصد الاعتمادات المالية له من قبل الهيئات والمؤسسات وبالدرجة التي تجعله في متناول الطفل العربي في كل مكان . وإذا كانت المهمة صعبة وجسيمة وتحتاج الى توفر دراسات موسعة بشأنها فإن الكثير من جوانبها الملحة تتطلب المبادرة الفورية والسريعة من قبل الناشر العربي وفق الاعتبارات التالية :

١ - وضع احصائية شاملة للانتاج المقدم للطفل العربي واستخلاص الصالح منه والمناسب لاهداف المكتبة العربية للاطفال والملائم لمعايره القومية وتراثه الديني والحضاري .

٢ - عدم الزج بكتاب الطفل الى صراع المنافسة التجارية بين دور النشر والحرص على اهمية المضمون وقيمه بمعزل عن حسابات الربح والخسارة .

٣ - الوقوف بقوة في وجه محاولات التغريب التي يتعرض لها وجدان الطفل العربي من خلال المسلسلات والكتب المترجمة التي تحاول شد انتباهه للنموذج الدخيل عليه .

٤ - الحرص في النقل والاقتباس والترجمة على ما له قيمة انسانية وفكرية عامة من التراث العالمي بما يعد اضافة جادة لثقافة الطفل ومنطلقا لاتساع مداركه .

وهذه في مجملها تتطلب بالضرورة اعتماد مقومات التعاون في مجالات نشر كتاب الطفل بوضع المشروعات المشتركة في مختلف منطلقاتها المحلية والقومية وطرحها للدراسة النظرية والعملية واستشراف مراميها القريبة والبعيدة الهادفة الى تغطية كافة الاحتياجات الثقافية والتربوية للطفل العربي .

ومثل هذه المجالات تعد مرتكزا حيويا لخدمة ثقافة الطفل العربي وتربية وجدانه ، ومن حقها على اجهزة النشر العربية المتعددة ان تستجمع جهودها وتتساند امكانياتها من أجل تحقيقها وانجازها .

١ - فما زلنا بحاجة الى دائرة معارف عربية للاطفال وهو مجال فسيح للتعاون بين اجهزة النشر لم تنطلق اليه بعد على ما يمثله من اهمية وخطورة . ومن غير المعقول ان تقتصر الجهود هنا عند الترجمة والاقتباس بل لابد من صياغة عربية للمعارف العامة لا تتعارض ووجدان الطفل العربي .

٢ - حاجة الطفل العربي للمعاجم العربية المصورة وقواميس اللغة للاطفال والحوليات المتنوعة التي تمنح عقل الطفل رسوخا ذهنيا نابتا .

٣ - في مجال المعلومات العامة مثل كتابة تاريخ الوطن العربي للاطفال والاطلس العربي للاطفال بما يعطي لوجدانه القومي تفتحاً ويفظة .

٤ - حاجة الطفل العربي الى مجلة للاطفال تعتمد الاصاله والجودة من خلال رؤية عربية سليمة دون مؤثرات خارجية .

ولن يكون هذا استقصاء شاملا لكل مجالات التعاون فذلك مما تتولاه الدراسات الموسعة بابعد من حدود هذه المحاولة البتسرة لان غاية ما تطمح اليه ان تكون مصدرا ومنطلقا لحوار موضوعي في مجال كتاب الطفل يستكشف الطريق من اجل اعداد خطة عامة تستهدف تنسيق الجهود العربية في مضمار النشر ، بما يحقق الغاية المطلوبة من مقومات الثقافة الاصلية والبناء السليم لطفنا العربي العزيز ومما يطمئن لهفتنا وتشوقنا لكل ما يحقق السعادة لهذا السيد الصغير .

يشير الهاشمي

طرابلس - ج.ع. ل